النظام المعرفي الإسلامي

من البدهي في النسق المعرفي الإسلامي أن الظواهر الكونية سواء الطبيعية أو الإنسانية أو الغيبية غير محدودة، وأن العقل البشري محدود ومحدد بقدرات الإنسان وطاقاته وطريقة تعليمه وتنشئته، ومصادره المعرفية ومنهجيته بحيث لا يستطيع العقل الإنساني – مهما تعاظمت قدراته وتعمقت منهجيته وتعددت وسائله – أن يلم بأي من ظواهر الكون في مستوياتها الثلاث الطبيعية والإنسانية والغيبية لأن الفكر الإنساني _كما يرى ابن خلدون[1] _ غير مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها، والوقوف على تفاصيل الوجود له فالوجود عند كل مدرك منحصر في مداركه لا يعدوها.

والأمر في نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه، ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات وكذلك الأعمى، فإذا علمت هذا فلعل هناك ضرباً من المدركات غير مدركاتنا، لأن إدراكاتنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس، والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾[سورة البروج:20][2].

في ظل هذه الحقيقة القاضية بتنوع ظواهر الكون وتعدد أبعادها وتشعبها من جانب، ومحدودية العقل

---

1 – هو عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن الحسن، أبو زيد، الحضرمي، الإشبيلي الأصل ، التونسي، ثم القاهري، المالكي، المعروف بابن خلدون (732-808هـ/1332-1406م)، عالم أديب، مؤرخ، إجتماعي، سياسي، حكيم، سبقت آراؤه وأفكاره ما توصل إليه أوجست كونت بعد ذلك بعدةقرون. أصبح من المسلم به تقريبا في مشارق الأرض ومغاربها أن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع أو " العمران البشري " كما يسميه، وله نظرات نافذة في علم السياسة والاقتصاد، وتعتبر" المقدمة " أول موسوعة في العلوم الإنسانية ، بل هي باكورة العمل الموسوعي العام قبل ظهور عصر الموسوعات بحوالي خمسة قرون . من تصانيفه: " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر.." 145. الموسوعة العربية العالمية، 135/10 : موسوعة السياسة : ج6 ، ص815 – 823 .

2 – نصر مُحَمَّد عارف، مقال منشور على شبكة الأنترنت، الرابط -http://alinssan.blogspot.com/2005/02/blog post_110764277276665627.html تاريخ التصفح: 2010/01/05.

البشري وعدم قدرته على الإحاطة بهذه الظواهر من جانب آخر، تصبح عملية الإدراك وما يترتب عليها من معرفة وعلم عملية في غاية التعقيد والتشابك حيث تصبح مصادر المعرفة متنوعة أشد ما يكون التنوع كمياً، ومحدودة وقاصرة في مفرداتها كيفياً أو نوعياً، فيصير كل مصدر من مصادر المعرفة على حدة غير قادر على الوصول إلى الحقيقة أو الاقتراب منها بصورة تكفي لإنارة طريق الإنسان في الحياة وتوصيله إلى أقرب نقطة من ضوء تلك الحقيقة[3].

ومن ثم يصبح من الضروري للعقل البشري أن يوجد تلك المعادلة التي تجمع بين مصادر متعددة للمعرفة تكفي في جملتها لنيل قبس من نور الحقيقة، هذه المعادلة أو هذه التركيبة هي النقطة الأولى والجوهرية في عملية المعرفة، وبدونها يتيه الإنسان في حالة من الغموض والجهل سواء كان جهلاً بسيطاً أم مركباً وعادة ما يكون مركباً لأنه سوف يرى الأشياء على غير حقيقتها ويعتقد أنه يراها على حقيقتها مثل العميان والفيل حين اعتقد كل منهم أن كل الحقيقة محصورة في الجزء الذي لامسه، مما أدى إلى إدراك كامل الزيف لحقيقة الفيل، فقد اعتبره أحدهم مثل جذع النخلة واعتبره ثان مثل الهضبة وثالث مثل الورقة[4].

والإنسان في تعامله مع حقائق الغيب والإنسان والطبيعة يقع في نفس الخطأ المنهجي الذي وقع فيه عميان ابن المقفع، حين يتعامل بقدرات حسية وعقلية محدودة مع ظواهر غير محددة وغير متناهية، ومن ثم

---

3 – المصدر نفسه.

4 – في نسبية المعرفة البشريةيضرب الغزالي مثالا لهذا القصور وللحدود التي يخضع لها العقل، فيروي لنا هذه الحكاية، "اعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل، وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه، فقالوا لابد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه، فطلبوه، فلما وصلوا إليه لمسوه، فوقع يد بعض العميان على رجليه، ووقع يد بعضهم على نابه، ووقع يد بعضهم على أذنه، فقالوا قد عرفنا. فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم، فقال الذي لمس الرجل: إن الفيل ما هو إلا مثل أسطوانة خشنة الظاهر، إلا أنه ألين منها. وقال الذي لمس الناب: ليس كما يقول، بل هو صلب لا لين فيه، وأملس لا خشونة فيه. وليس في غلظ الاسطوانة أصلا بل هو مثل عمود. وقال الذي لمس الأذن: لعمري هو لين، وفيه خشونة.. ولكن.. ما هو مثل عمود ولا هو مثل أسطوانة، وإنما هو مثل جلد عريض غليظ. فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه، إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل، ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل، ولكنهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل. فاستبصر في هذا المثال واعتبر به، فإنه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه"22– الإحياء،8/4. فالمعرفة البشرية لا تحيط بموضعها من جميع نواحيه، بل تتعلق بأطراف أو أجزاء منه فقط... أبوحامد الغزالي– الاقتصاد في الاعتقاد، ص 135–136.

تشتد حاجته إلى أن يركب أو يعيد تركيب المعادلة التي تمكنه من الإلمام بأبعاد الحقيقة وحدودها العامة دون ادعاء احتوائها أو الإمساك بكل تلابيبها أو الإحاطة بها.

وهذه المعادلة أو هذا التركيب بين مصادر المعرفة وطرق الوصول إليها يطلق عليه أحياناً الناظم المعرفي وأخرى الضابط المعرفي وثالثة النظام المعرفي ورابعة النموذج المعرفي، أو يطلق عليه في النسق المعرفي الأوروبي مفهوم paradigm.

مصادر المعرفة

سنقوم بدراسة الوسيلة أو الأداة أو المصدر الذي تتم عن طريقه تشكيل المعرفة الإنسانية، عبر تحديد مصادر المعرفة «الأدوات المعرفية»، وتحديد الآليات التي تتيحها هذه المصادر للمعارف الكاشفة عن الواقع الموضوعي. **وقد اختلف الفلاسفة في ذلك على مذاهب:**

- فمنهم من ذهب إلى أن العقل هو المصدر الأول والأساسي للمعرفة «وهؤلاء هم العقليون».
- ومنهم من ذهب إلى أن التجربة الحسية هي المصدر الأول والأساسي للمعرفة «وهؤلاء هم التجريبيون».
- ومنهم من ذهب على أن الحدس والإلهام هو المصدر الأول والأساسي للمعرفة «وهؤلاء هم الحدسيون». ومنهم من جمع بينها وبين الوحي.

والاختلاف في المصادر الأساسية للوصول إلى المعرفة، لا يعني القول بإلغاء المصادر الأخرى في حال إثبات إحداها، وإنما يعني القول بأن الأولوية في الثبوت هي لهذا المصدر أو ذاك.

موقع الوحي من مصادر المعرفة:

دأب دارسو نظرية المعرفة ـ فلسفياً أو علمياً ـ **على حصر مصادرها** في «الحس والعقل» كما دأبوا على استعراض الصراع الفكري والجدلي بينهم في أن المصدر هو الحس فقط أو هو العقل فقط أو هما معاً .

وكان هذا لأنهم استبعدوا الفكر الديني أو المعرفة الدينية من مجال دراساتهم. ولأنّا نؤمن بالدين الإلهي تتربع المصادر لدينا كالتالي: "الوحي، والعقل، والحس، والإلهام أو الحدس".

إنّ المعنى الاصطلاحي الذي نقصده ونهدف إليه من الوحي هو ما يلقيه الله إلى أحد أنبيائه ورسله؛ نحو إنزاله القرآن على سيدنا مُحَمَّد ﷺ، وإنزاله الإنجيل على سيدنا عيسى وإنزاله التوراة على سيدنا موسى وإنزاله الزبور على سيدنا داود عليهم السلام .

وإذا اقتصرنا على ما أنزل على مُحَمَّد ﷺ فإننا نجد أنّ **الوحي ينقسم إلى قسمين هما: 1–** القرآن الذي أنزل عليه بلفظه ومعناه كما سيأتي.

2–السنة التي أوحيت إليه من الله بمعناها وإن كان اللفظ من قبله.

أولا: ضرورة الوحي

وتتجلى ضرورة الوحي مصدرا للمعرفة فيما يلي:

1- أن الوحي ممكن في نظر العقل: لأن العقل ذاته يسلم بأنه محدود بعالم الشهادة وقوانينها، ولا يستطيع إنكار ميدان آخر وطريق آخر للمعرفة، كما أن العقل من خلال قوانينه يحكم بوجود عالم الغيب.

2- لا **كفاية في العقل**: لأن العقول قاصرة عن إدراك مختلف جوانب ومجالات الحياة والكون.

ثانيا: الحاجة للوحي

1. الحاجة إلى الوحي في الاعتقاد.
2. الحاجة إلى الوحي في التشريع.
3. النبوة فيها حجة على الخلق.

طرق اكتساب المعرفة في النظام المعرفي القرآني:

مصادر المعرفة في النِّظام المعرفي القرآني مصدران متكاملان متآزران هما:

1- الوحي: (الآيات المتلوة، وسنة الأنبياء، والرُّؤيا، والإلهام، والحدس).

2- الكون: (الآيات المخلوقة، الآفاق، الأنفس، قصص الأولين، أخبار التاريخ والحاضر).

وطرق اكتساب المعرفة من كليهما هي **العقل والإحساس**لا سبيلَ بغيرهما؛ قال بعض الباحثين: "ومن هنا فإنَّنا نُخالف ما شاع فيكتابات عدد من علماء المسلمين من اعتبار العقل مصدرًا للمعرفة جنبًا إلىجنب الوحي، ذلك أنَّ معارف الوحي ومعارف الكون لا يُتوصل إليها إلا بفعلالتفكُّر والتدبر والتعقل، والعقل ليس عضوًا في الإنسان، بل هو طاقة وقدرةوعمل، ولم يرد في القرآن إلا

بصيغة الفعل لا صيغةِ الاسم"[5].

فلو كان العقل مصدرًا للعلم،فما الوسيلةُ التي يستخرج أو يتوصل بها إلى العلم من هذا المصدر؟ العقل لا شك طاقة فعل (قوة إدراكيَّة)،يتوصل بها للمعرفة والعلم من مصدريها الأساسيين: الوحي والكون، والوحييُمثل دائرة المعارف الإسلامية، أمَّا الكون فإنه يمثل المعجم والمختبرالذي يحتوي على مفردات هذه الدائرة، فيقوم الباحث المتعلم بالنظر في مفرداتهذا المعجم، مسترشدًا بما جاء في دائرة المعارف، كما أنَّه يستعين بمايكتشفه في هذا المختبر؛ على فهم ما يقرؤه في دائرة المعارف.

فالكون فيالنظام المعرفي القرآني هو الجامعة المفتوحة، وفيها أنواع من المختبراتوالتجارب والمشاهدات لا تحصى[6].

والله أمر بالقراءة،وجعل التكليف مُناطًا بوجود العقل،وبلوغهمرحلة التمييز، وتعقل الخطاب، والمقروء لم يُعِنْه ليشملَ كلَّ ما يقدرعليه الإنسان، مع التزام المنهج الرباني في توجيه ما يقرؤه، فكان له الكتابالمسطور (الوحي)، والكتاب المنظور (الكون)، وفي بيان ذلك كلامٌ يطول، وأدلة لا تحصر، فسنقتصر على آية شاملة، وهي قوله تعالى[سَنُرِيهِمْآيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْأَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍشَهِيدٌ[]فصلت: 53].

عندنا هنا مصطلحات معرفيَّة هي: "الرُّؤية"" سنريهم"، "آياتنا" العلامات الموضوعة للاستدلال كموضوع للمعرفة والعلم، "الآفاق والأنفس «ميدان تواجد الآيات؛ أي: مَحل المعلومات

---

5 – مجلةإسلامِيَّة المعرفة: حول النظام المعرفي"، محمود الرشدان، المعهد العالليللفكر الإسلامي، واشنطن، العدد (10)، 1997، ص (39– 40.

6 – المصدر نفسه، 39– 40.

والمعارف (مصدر المعرفة)، "يتبيَّن"حصول العلم بالنَّفس المدركة، "الحق" بلوغ اليقين من حصول العلم.

يقول سيد قطب: "إنه الإيقاع الأخير . وإنه لإيقاع كبير . .

إنه وعد الله لعباده بني الإنسان أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون، ومن خفايا أنفسهم على السواء. وعدهم أن يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم، حتى يتبين لهم أنه الحق . هذا الدين . وهذا الكتاب . وهذا المنهج . وهذا القول الذي يقوله لهم . ومن أصدق من الله حديثاً؟ ولقد صدقهم الله وعده؛ فكشف لهم عن آياته في الآفاق في خلال القرون الأربعة عشر التي تلت هذا الوعد؛ وكشف لهم عن آياته في أنفسهم[7].

فالكشف هنا أو الرُّؤية هنا رؤية قلبية؛أي: عملية إدراكيَّة، والآيات لُغَةً: هي العلامات الدالة الواضحة؛ أي: هيحقيقة الأشياء، والأشياء هنا هي "الآفاق والأنفس"، فعلامات الآفاق والأنفسآياتُها وحقائقها؛ وهي المعلومات المأخوذة منها، و"التبيُّن"هو حصول العلم بالنَّفس، بوصول العلم إلى محله القلب، والعلم هنا بلغ درجةَ اليقين، "الحق "وهو أعلى من الحقيقة؛ لكونه دومًا الخير والصلاح والصدق، فمصدر الحق أو مصدر بيان الحق هو آيات الآفاق والأنفس،(الكون)؛أي: العلم النابع من الكون، فالكون مصدر للمعرفة والعلم الذي يحاجج الله –تعالى– به عباده، والحواس تتصل بجهة واحدة، وهي الكون، وتنقل ما تتلقاهإلى العقل؛ ليتبين ويستوعب فيميز الحق من الباطل،

7 – "في ظلال القرآن"، سيد قطب،ج06 ص483.

و"الآيات"هنا هي العلامات الأوضح في الدلالة، فهي المعلوم الخالي من اللبس والإشكال وحقائق الأشياء.

فالكون بذلك مصدر للعلم والمعرفة؛كيما يؤمن الناس بالله وأنبيائه وكتبه ويلتزموا، وهؤلاء درجتهم في الإيمان أدنى من الذين زادوا مصدرًا آخر هوالوحي؛ كما قال تعالى:[أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ][فصلت53] ؛ أي: أولم يكفهم القرآن دليلاً على وحدانية الله وصدق نبيه؟ ! والوحي هنا مصدر لا طاقةَ للإنسان للوصول له بالحواس أو العقل؛ أي: تحصيلهفوق قدرة الإنسان، فكان لا بُدَّ من واسطة تبلغه بالوحي وهم الأنبياء[8].

8 – د. بليل عبدالكريم، دراسة منشورة بشبكة الأنترنت، بعنوان: مصادر المعرفة في القرآن الكريم، تاريخ الإطلاع: 2009/11/15 ميلادي – 1430/11/28 هجري، رابط الموضوع: http://www.alukah.net/sharia/0/8392/#ixzz3RozpYAQl